التصوف على « البلاج »

للأستاذ أنور الجندى

من أعجب المفارقات أن يذكرنى « البلاج » بالتصوف

بل لعل غاية العجب أن أكتب هذا الفصل أمام إحدى « كبائن » ستانلى باى . .

وليست هذه هى المرة الأولى فيما أعتقد، التى تدعو المفارقات فيها مثل هذه الدعوة . .

إننا لاشك نمر بمحنة عنيفة ، تبدأ أطرافها الأولى هنا على البحر ، وتنتهى هناك فى معترك الحرية واستخلاص الحقوق ، وإقامة المجتمع الصالح . .

وليس فى الإمكان أن يجتمع الخير والإثم معا ، ولا أن يشترك الحق والباطل ، ولا يمكن أن نواجه المستقبل إلا بنفوس مفطومة من الشهوات وأوضار اللذات . . فإذا لم نستطع أن نصوغ هذه النفوس ، كنا أعجز من أن نحقق لوطننا أو لبلادنا ما تبتغيه من مجد

ولا عبرة بما يقوله البعض ، من أن النفس الإنسانية تستطيع أن تجمع بين الجهاد واللذة ، أو أن بعض المكافحين والمناضلين كانوا فى حياتهم الخاصة على غير الصورة المثالية التى كانوا يدعون إليها . .

إن « البلاج » الآن مدرسة ضخمة من مدارس الرخاوة والميوعة والانطلاق ، يتلقى فيها الآباء والأمهات والشبان والفتيات والأطفال دروساً على جانب كبير من الخطورة ، إنها أبعد أثرا فى مستقبل هذا الوطن من مدرسة السينما ، أو قل إنها التطبيق العملى لتلك الصور المتحركة

إننى أشك كثيرا فى قدرة الشباب الذى اعتاد أن يقضى بضعة شهور من العام فى محيط ينضح بالإغراء ، واشترك إلى حد كبير فى تلك المناورات التى تقوم على الشاطئ وفى الأمواج ، وفى الكابينات ، أشك كثيرا فى أنه يستطيع الصمود يوما لمعركة فاصلة فى سبيل الحرية أو الإصلاح . .

وهذه الفتاة وهى النصف الثانى من الأمة ، هى الجزء البعيد الأثر فى رعاية الزوج وتنشئة الابن ، كيف يمكن أن يعتمد عليها ، وهى على هذه الصورة من الاندفاع فى السباب العنيف

أنا أومن كل الإيمان بحق الجسم فى الرياضة والهواء والماء ولكن ليس على هذه الصورة المزعجة القاسية ، التى لا يمكن أن تحتملها نفسية الشباب المراهق ، دون أن تدفعه دفعا إلى اتجاه قد يكون بعيد الأثر فى حاضره ومستقبله . .

فى الإمكان أن يتاح للأسر وللشباب وللفتيات أن يحققوا جميعا غايتهم من الاستفادة من الهواء والماء ، بطريقة أو بأخرى، أما على هذه الصورة ، فليس الأمر أمر صحة أو راحة أو إجازة ، فإن الحياة فوق البلاج ليست باليسيرة على النفوس التى تعيشها ، وليست مؤدية بأى حال إلى ذلك السلام أو الاستجمام المنشود . .

وإنما هذا « سوق » يقام ، فيه كل أنواع الصراع والصياح والضجيج ، وفيه قسوة النزاع النفسى الداخلى ، وأسباب الإغراء ، ووسائل المتاع الجسدى ، واستفزاز الشهوات ، وتدفقها واندفاعها . .

إن الحياة فى القاهرة طوال العام ليست إلا مقدمات أو نتائج لهذه الفترة التى يقضيها الفتى أو الفتاة على البلاج . إنها فترة التحضير والأحلام بالأجساد العارية ، والجلسات الماثلة والنظرات الباسمة ، أو هى النتائج القاسية للحظات التى استحكم فيها الشيطان ، أو تطامنت فيها الغريزة . .

إن « الحرية » التى يتمتع بها الناس على البلاج «ضريبة» قاسية تدفع من الأجساد ومن النفوس ومن الأرواح ، تدفع من حساب هذا الوطن ، ولا يستفيد بها إلا خصومه ، فهى

تؤخر نهضته أعواما ، بل أجيالا .. وهى لا تفسد نفوس الجيل الحاضر فحسب ، بل تترك جراثيم المرض لتنمو فى أجساد أخرى ، ما زالت يانعة نضرة ، فإذا استوت كانت أعجز من أن تقاوم التيار أو تواجه الحقائق .. فإذا ما اصطدمت فى «معركة» خرت كايلة واهية

إن الأمم التى أطلقت لنفسها العنان فى ميدان اللهو كانت قد تحررت أولا ونضجت ، واستحصدت شخصيتها .. فكان عليها بعد ذلك أن تلهو .. أما « نحن » الذين ما زلنا نكافح ونجاهد ونصارع فى سبيل الوجود الذاتى ، وفى سبيل تحرير أوطاننا ، وإقامة دعائم مجتمع كامل ، فإننا فى حاجة إلى سواعد قوية مفتولة ، ونفسيات قدبلغت غاية السمو والكرامة والعزة، نفوس قد فطمت عن الشهوات ، وترفعت عن الصغائر ، وتسامت عن النزوات ، فحفظت كيانها الروحى والنفسى والعقلى قويا عاليا .. ولا شك أن مدرسة « البلاج » تتعارض مع هذا النوع من الشباب تعارضا كاملا ، بل إنها من أسباب القضاء عليه .. إنها تمده بالمادة السامة التى تحطم البقية الباقية فيه .. فلا تدعه يستطيع يوما ، أو يقف موقفا حاسما ، أو يصمد فى جولة حامية

ولعل هذه المعانى هى التى جعلتنى أفكر فى «التصوف» .. التصوف المستنير الذى عرفه عمر وعلى والحسن البصرى والجنيد ..

هذا الذى يرتبط فيه الزهد فى مغريات الدنيا بالقدرة على مواجهة الحقائق ..

فليس شك أن الرجل « الجنتيل » الذى لا يستطيع أن يجهر بكلمة الحق ، هو فى الأغلب رجل غلبت عليه المطامع الدنيوية ، فهو يجامل ويتملق ، ويسمع مايكره ، ويخفى آراءه الخاصة ، حتى لا تنشأ خصومة مع فلان أو فلان ، ممن قد تضطره الحياة يوما إلى أن يلجأ إليه .. وبهذا يقال إمعة ، ومصدر هذا أن متاع الحياة قد وقذه ، فماتت فى نفسه روح

الجرأة والشجاعة الأدبية

أما الصوفى الزاهد الذى استهان بالدنيا واحتقرها ، فهو أجرأ الناس فى قول كلمة الحق ، ونقد ما يراه ..

ولذلك عرف المتصوفة بالجرأة على الزعماء والأمراء والحكام يجبهونهم بكلمة الحق ، ويقولونها سافرة جريئة ولا يبالون .. لأن الحياة هانت عليهم فلم يعد يخيفهم الحرمان منها ، ولأنهم قداستخفوا بزخرفها ، وامحت من قلوبهم مطامعها ، فأصبحوا يرددون مع الصوفى القديم « إن قتلى شهادة ، وسجنى خلوة ، وتغريبى سياحة »

والتاريخ يذكر شعبيا والفضيل بن عياض وعطاء وأبى حازم وابن السماك وعمارة بن حزة والأوزاعى ، بأنهم كانوا زهادا صوفية ، وقفوا مواقف الجرأة فى تذكير الخلفاء بعيوبهم وأخطائهم ، ورفضوا ما يقدم لهم من أعطيات أو هدايا ، وكان الخلفاء من سليمان إلى المنصور إلى الرشيد إلى المهدى يسمعون نصحهم بقلوب واجفة ، ونفوس متأهبة لقبول النصح

وعندما وضع الغزالى أصول التصوف ، نصح الصوفية باعتزال الأمراء والحكام ، والانصراف عن موائدهم ، حتى يكون لديهم من الشجاعة ما يكفيهم لأداء رسالتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

* * *

ونحن فى حاجة إلى موجة من التصوف ، حتى نوازن ذلك الخطر «البلاجى» ، وقديما كان التصوف يغزو ميادين الحياة عندما يجنح الناس إلى الترف والغنى ، وينصرفون إلى الأمصار ويكونون الثروات ، فكان بذلك عامل « سد الفراغ » كما يقول المحدثون

ويرمى التصوف فى صميمه إلى القناعة ونفض اليد من البريق ، وشغل القلب عن المتاع ، والانصراف عن زخرف المال والنضار إلى ما هو أسمى منه ..

والتصوف فى غايته يدعو إلى القصد من متاع الدنيا ، وجاه

متاع الآخرة ، والانصراف عن كثير من حلال المتاع خوف الوقوع في حرامه ، ويهدف إلى حرمان النفس مما تتطلع إليه مما في أيدي الناس

وكان هؤلاء الصوفية أنفسهم يحملون السيف إبان الغزو ، فإذا انتهى الجهاد بالسيف عادوا إلى جهاد النفس وإخلاص النية لله

وليس شك أن انصراف النفس الإنسانية في بعض العهود من التصوف هو الذي أرخى العنان لهجمات التتار والصليبيين ، وكان عاملا فعالا من عوامل الهزيمة ، إذا واجهت هذه القوات التي كانت تحمل فكرة معينة ، جيلا مريضا رخوا قد أضرت به الرغبات وفتلت قوته وصلابته ، فلم يستطع أن يقف أمام الجحافل المغيرة أو يردها ، فلما برز مرة أخرى الرجال الذين أشربوا روح الصوفية الحقة أمثال الشهيد نور الدين زنكي وغيرهم أمكن مقاومة الغزاة وسحقهم ، واستعادة مجد البلاد

هي الصوفية الناصعة الصافية التي كانت تتسم باحتقار الغنائم والأموال والجاه ، في سبيل الله ، وترى رجالها فوق سروج الخيل ، وأطباق الماء ، وأعماق الصحراء

إن نظام الفروسية في ذاتها الذي اقتبسه الأوربيون ، نظام صوفي ، ونظام الصفوة القائم على الكرم والسخاء والشجاعة والمروءة نظام صوفي ، وهي تهدف في جملتها إلى أن يجرد الفرد نفسه للأمة ، فيعيش للجماعة ويعيش للفكرة ، ويعيش للمثل الأعلى

ولا شك أن روح الصوفية الخالصة هي التي دفعت أبي حنيفة من أن يقبل القضاء ، وهي التي أدت إلى أن يجلد مالك ويعذب أحمد بن حنبل

فلست أقصد بالتصوف ، ذلك الزهد والاعتدال والاعتكاف ، فليس هذا من الإسلام في شيء . إننا نمر بمرحلة « الضرورة » من تاريخ الوطن ، وهي تقتضينا أن نكون جميعا جنوداً ، قد أعدوا أنفسهم لاحتمال أعباء كفاح ضخم طويل المدى ، من شأن هذا الكفاح أن نعد له أنفسنا بالتربية الروحية ، هذه التربية التي تستدعي صلابة للنفس وقوة الاحتمال والقدرة على مواجهة الخطوب

وأن يتهم هذا الشباب الذي يبدد شبابه ورجولته ووقته ، ويصرفها على غير وجهها

نريد ذلك « التصوف » الذي تحس النفس فيه بالقوة أمام غزوات الإغراء ، والاستعلاء أمام اللذات والشهوات ، هذا التصوف الذي يدفعنا في الحياة كراما ، نعمل ونجاهد ونواجه الخطوب ، فنصبر لها ونقاومها ، ولا ننهزم أمامها ولا ننهار

استانلي باي — أنور الجندي

مختارات من الأدب الفرنسي
شعر ونثر

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد الفريدة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

وثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد